
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

القوميات الإفريقية في جنوب الصحراء الكبرى

بقلم الأستاذ إيفان بوتيخين

ترجمة الأستاذ محمد البخاري

پوتيخين Potekhin هو أحد أساتذة الأكاديمية السوفيتية وعميد معهد علم الأجناس البشرية بموسكو ، وقد قام بتأليف سفر هام سماه « شعوب إفريقية » ، وعاونه فى كتابته الأستاذ أولدروج ، وهو بحث فى علم الأجناس البشرية . وپوتيخين بصدد إنهاء مؤلفه عن غانة المسمى « من الاحتلال البريطانى إلى قيام الدولة » .

وقفت كل جهودى تقريباً هذه السنوات الأخيرة على دراسة تكوُّن الأمم فى جنوب صحراء إفريقية .

وقد أثارت « منظمات اتحاد جنوب إفريقية الديمقراطية » مناقشة فى المسألة سنة ١٩٥٤ ، فكتبت صحيفة « أدفانس » فى أبريل عام ١٩٥٤ تقول : « إن حركة تحرُّرنا الوطنى هى نظرة صريحة إلى جوهر المسألة القومية » . وكانت أهم مسألة فى النقاش هى معرفة ماهية الأمة ، وما الأمم القائمة أو التى تمر الآن بدور التكوين فى « اتحاد جنوب إفريقية » .

ويجب أن أصرّح هنا أن المشتركين فى المناقشة لم يظهروا فهماً دقيقاً لهذه المسائل ؛ وعندئذ قرّرت أن أدرس هذه المشكلة . وفى سنة ١٩٥٥ أصدرت كتاباً بعنوان « تكوُّن قبائل البانتو فى جماعات قومية بجنوب إفريقية » ونشرت مجلة « الوجود الإفريقى » (بعدد ١٢ سنة ١٩٥٧) تعليقاً على هذا الكتاب بقلم « ماكسيم رودانسون » اعترف فيه بأن مسألة تكون القوميات الإفريقية هى إحدى مشكلات الساعة الملحَّة ، وأنها تستحق اهتماماً كبيراً .

واختتم ماكسيم رودانسون مقاله متمنياً « أن يقوم مؤلفون من الشباب الإفريقيين ممن يعرفون بلادهم معرفة مؤيدة بالوثائق بعمل مماثل لعمل پوتيخين مستندين فى بحثهم إلى الأسس القوية ، التى استند إليها جادّين فى دراستهم مثله ، وأن يحدّدوا الاتجاه الذى يتبعه تطور الشكل الوطنى فى هذه المنطقة ، ولسوف يكون هذا عملا هامًّا . ولا شك أن هذا البحث سيسهم مساهمة قيمة فى حركة تحرُّر شعوب إفريقية » .

وهكذا وصلت إلى هذا القرار وهو : إنه من المفيد أن أنقل إلى زملائى بعض الآراء المتصلة بمنهاجية العمل فى البحوث المرتبطة بهذه المشكلة ولو أننى استطعت بإبداء وجهة نظرى أن أثير نقاشاً حول هذا الموضوع لكانت هذه مساهمة فعالة فى دراسة تاريخ الشعوب الإفريقية وعلم الأجناس البشرية بهذه المنطقة .

ولكى تكون هذه المناقشة قيمة أبدأ بعرض ما أعلم عن اصطلاح « الأمة » .

لم يوجد بعدُ بين ثنايا العلم العالمى تحديدٌ معترف به ولو بشكل عامٍّ لهذا الاصطلاح الذى يستعمل كثيراً بطريقة تحكمية تماماً ، والذى يختلف مضمونه اختلافاً كبيراً ، وقد يطلق هذا الاصطلاح أحياناً على أحد

الشعوب ، ودون مراعاة لدرجة تطوره الاجتماعى . وفى هذه الحال يمكن أن نضع أحد هذين الاصطلاحين : « الأمة » ، و « القبيلة » مكان الآخر . وقد لاحظنا فى مطالعة الأدب الذى يتحدث مثلا — عن قبائل « الزولو » فى بداية القرن التاسع عشر — كيف يعبر عنها « بقبيلة الزولو » و « بأمة الزولو » أيضاً ، كما سمى « أشانتى » القرن العشرين بأمة أحياناً وبقبيلة أحياناً أخر . وقد يطلق اصطلاح « الأمة » على جميع سكان بلد ما دون نظر إلى اللغة التى يتحدثون بها . واحدة كانت أو متعددة .

وقد ذكر قاموس « ويبستر » القاموس العالمى الجديد(١) فى تعريفه لكلمة الأمة ما يأتى :

١ — مجموعة دائمة نامية على مر الزمن من أناس يشتركون فى أرض متميزة وحياة اقتصادية وثقافية ولغة خاصة .
٢ — شعب يعيش فى وطن موحد وفى ظل حكومة واحدة .
٣ — (ا) شعب أوقبيلة . (ب) قبيلة من هنود أمريكا الشمالية تابعة لاتحاد ما مثل « الأمم العشر » (جـ) وطن قبيلة كهذه .

ولو أننا فسرنا معنى هذه الكلمة بشكل غامض كهذا ما أمكن طرح مشكلة تكون الأمم : لقد وجدت الأمم منذ القدم ، ووجدت فى كل مكان ، فلا يمكن إذن أن تكون هناك مشكلة تكون أمة . أما إذا كان هناك معنى محدد لاصطلاح « الأمة » فإنه يكون من الممكن طرح المشكلة هكذا : « كيف ومتى تتكون الأمة ؟ » .

المسألة ليست معركة ألفاظ أبداً ! . إن وضع تعريف محدد لكلمة « الأمة » ليحمل أهميـــة حيوية للشعوب ؛ فالأمة ليست فكرة خيالية أو تصوفية ، بل هى ظاهرة واقعية تتطلب بهذا الاعتبار تعريفاً دقيقاً يستحيل بدونه فهم المسألة القومية التى تلعب دوراً خطيراً فى حياة الشعوب اليوم .

وسأبدأ — لكى أدرس مشكلة تكون الأمم — من التعريف الذى وضعه ستالين منذ عام ١٩١٣ والذى يعتبر الأمة مجموعة إنسانية معينة محددة فى دقة : إن هناك مجموعات إنسانية مختلفة ، ولكن لا يمكن اعتبارها جميعاً أمماً ؛ فللأمة قسماتها المميزة .

وأولى المقومات أو القسمة الأولى المميزة لأمة — هى الأرض المشتركة ، ولا يمكن أن توجد أمة بدون هذه الأرض المشتركة بين سكانها . وأكبر مثل حيوى لهذا هم اليهود ، فهم لا يمثلون أمة حيث تفرقوا فى شعاب الأرض عدداً من السنين لأسباب تاريخية .

لم يكن لليهود الذين يحيون فى بلاد مختلفة أية فائدة اقتصادية أوسياسية أو ثقافية مشتركة ، وقد نسى كثير منهم منذ بعيد لغتهم ، وأخذوا يتحدثون بلغة الشعوب التى يعيشون بينها .

والقسمة الثانية المميزة للأمة — هى اللغة المشتركة التى بدونها لا يمكن أن تكون هناك علاقة يومية منتظمة بين الأفراد ، فإنهم إن كانوا يتكلمون بلغات مختلفة دون أن يتفاهموا فهم عاجزون طبعاً عن أن يكونوا أمة واحدة ؛ إن اللغة هى التعبير الروحى لشعب ما ، وكل إنسان يحب لغته الخاصة ويفضل التحدث بها .

ونتيجة لهذه الحياة المشتركة فوق أرض موحدة ، ولهذه العلاقات الثابتة القائمة على اللغة الموحدة ، تصبح للأفراد عادات وتقاليد وطريقة حياة خاصة بهم ، وأذواق فنية متشابهة ، وثقافة روحية وغير روحية موحدة . وتختلف بعض أمم العالم الكبيرة والصغيرة عن بعض لا باللغة وحدها ، بل بالثقافة والسيكلوجية أيضاً ، ولكل أمة ثقافتها القومية التى تحبها وتقدرها ، وتلك هى القسمة المميزة الثالثة .

أما القسمة الرابعة فهى الاقتصاد الموحد ، بمعنى أن جميع أجزاء الوطن الذى يسكنه شعب ما مترابطة اقتصادياً بعضها ببعض ، وأن يوجد تقسيم جغرافى للعمل وتبادل منتظم للمنتجات : أى يوجد باختصـــار سوق قومية واحدة ؛ فإن الاقتصاد الموحد ليقيم الروابط بين الأفراد الذين يعيشون فى أجزاء الوطن المختلفة الذى يسكنه شعب ما ، ويولد الحاجة إلى إقامة علاقات منتظمة

(١) New World Dictionnary of Webster.

بين الأفراد ، وذلك أمر يساعد على اختفاء اختلافات اللغة المحلية مثل اللهجات والألفاظ الإقليمية ، ويسرع بعملية تكوين لغة قومية موحدة يتبناها ، ويعبر عنها الأدب بشكل دائم .

وإن القسمات المشتركة للثقافة الروحية والمادية لتتطور كنتيجة للاقتصاد الموحد ؛ فالاقتصاد الموحد يوحد وطن الأمة ويلبس وحدة الأرض معنى عملياً ، وتلك هي القاعدة التي يبنى عليها تفهم المصالح الاقتصادية والسياسة المشتركة لأمة من الأمم .

* * *

تلك هي المقومات أو القسمات الأربع المميزة للأمة. ولا يعني هذا أنه ليس للأمة قسمات أخر مميزة ، وإنما هذه هي الأربع الرئيسة والأساسية .

وإذا فهمنا كلمة « الأمة » هكذا أصبح واضحاً أن أمةً ما لا يمكن أن تولد إلا في ظل نظام رأسمالي وأن الأمم هي نتاج التطور الرأسمالي .

وهذا يعني أن الأمم لم توجد منذ القدم ، وأنها تولد ولا يتمّ تكوينها إلا في مرحلة معينة من مراحل التاريخ البشري ؛ فهي لم توجد ولا يمكن أن توجد في ظل النظام الإقطاعي ، ولم تكن ممكنة الوجود في ظل الإقطاع لأنه لم يكن هناك اقتصاد موحد ولم يكن هناك سوق قومية ؛ فقد تميز المجتمع الإقطاعي باقتصاد لا يهدف إلى الكسب ، بل إلى الاكتفاء ، وهذا لا يعني اختفاء تبادل منتجات العمل تماماً في النظام الإقطاعي ، وأنه لم تكن هناك علاقات اقتصادية ؛ كلا .

لقد وجد عدد من المبادلات بين منتجات العمل ومن العلاقات الاقتصادية حتى في ظل النظام « المشاعي البدائي » ؛ ومع هذا فلم تكن تلك العلاقات ذات طابع عام ولم تكن اضطرارية بحال من الأحوال ، ويمكن في النظام الإقطاعي أن توجد علاقات اقتصادية بين المناطق أو أن تختفي ، ولكن انقطاعها لا يمكن أن يوقف الإنتاج المادي ، وذلك ما يخالف ما يجري في النظام الرأسمالي حيث « يتحول إنتاج عددٍ ما من جهود متفرقة إلى عدد ما من العمل الاجتماعي ، وحيث تحولت المنتجات من منتجات فردٍ ما إلى منتجات اجتماعية » (إنجلز) .

ومنذ ذلك الوقت أصبحت العلاقات الاقتصادية شرطاً ضرورياً للإنتاج .

* * *

نحن نطلق الاصطلاح « نارودنوست » على المجموعات المنحدرة من أصل واحد في ظل النظام العبودي والإقطاعي ، ولم نجد هذا الاصطلاح ما يعادله في لغات أوروبا الغربية ، وكلمة « ناردنوست » مشتقة من كلمة « نارود » بمعنى شعب ، وسأستعمل من الآن كلمة « نارودنوست » الروسية(١) .

« النارودنوست » هي مجموعة أفراد منحدرين من أصل واحد يملكون أرضاً واحدة ، لهم لغة واحدة ، وثقافة واحدة ، وهي تخالف الأمة في أنها ليس لها اقتصاد واحد ، بل إن القسمات الثلاث المميزة للنارودنوست تختلف عن القسمات المقابلة لها التي تميز الأمة : فالنظام الإقطاعي يتميز بتقسيم الأرض إلى إقطاعيات أو إمارات إقطاعية ، ويتميز في بعض الأحوال بعدم وجود سلطة دولة مركزية ، وتوجد الحكومات القومية داخل النظام الرأسمالي شاملة جميع الأرض التي يسكنها شعب ما داخل حدودها بشكل عام .

وإن وجود لهجات إقليمية منحدرة من اللغة المشتركة لظاهرة مميزة للنظام الإقطاعي ، بل قد توجد في حالات كثيرة لغة أدبية موحدة لا تستعملها إلا الطبقات العليا من المجتمع ، في حين أن الشعب عامة – بسبب أمية أغلبية السكان – يتحدث بلهجات مختلفة . وفي النظام الرأسمالي حينما تقوم علاقات اقتصادية واسعة ، تنتقل كتلٌ من الشعب من منطقة لأخرى ، وحينئذ فقط ينمو وينتشر التعليم وتصبح اللغة الأدبية لغة جزء هامٍّ من

(١) أنسب كلمة عربية لها هي كلمة قوم .

الشعب ، وتتحول إلى وسيلة موحدة للتبادل ، وتختفى شيئاً فشيئاً اللهجات الإقليمية .

ويمكن أن نقول الشيء نفسه عن الثقافة المشتركة ؛ ففى النظام الرأسمالى وحده تزدهر الثقافة المشتركة تماماً .

وأخيراً «فالنارودنوست» والأمة تختلفان فى تركيبهما الطبقى : ففى الحال الأولى نجد الأمراء الإقطاعيين والفلاحين التابعين للطبقات الرئيسة ، ونجد فى الحال الأخرى ، البرجوازيات والبروليتاريات .

* * *

وفى نظام المشاع البدائى لم توجد أمة ولا نارودنوست ؛ فقد كانت المجموعات المنحدرة من أصل واحد تأخذ شكل القبيلة ؛ فما الفرق إذن بين القبيلة والنارودنوست ؟

إن القبيلة هى مجموعة بدون طبقات ، على حين تنقسم النارودنوست طبقات ، وتتكون النارودنوست فى فترة تحوّل المجتمع اللاطبقى إلى مجتمع طبقى .

والمجموعة القبلية قائمة على أساس رابطة الدم ؛ فهى مجموعة أفراد انحدروا من أصل واحد حقيقى أو خرافى ، أما النارودنوست فجماعة تعيش فى أرض واحدة وتجمع بين أفراد لا لوحدة أصلهم ، بل لأنهم يعيشون على الأرض المشتركة نفسها ، ويمكن أن نقول ، بطريقة أخرى : إن ذلك إنما كان لعلاقاتهم الإقليمية .

وتظهر النارودنوست من تفكك المجموعة القبلية وامتزاج أجزاء بعض القبائل بأجزاء من بعضها الآخر ومن تكوّن الطبقات ، وينتج اختلاط بعض القبائل ببعض نشوء لغة مشتركة متطورة عن إحدى اللغات القبلية ، على حين تصبح اللغات الأخرى لهجات إقليمية ، ثم تختفى فى النهاية من مسرح التاريخ . ويؤدى اختلاط القبائل واتحادها بشكل حتمى إلى تغيرات فى الثقافة المادية وفى سيكولوجية الشعب ، وتختفى المميزات القبلية ، لتظهر ثقافة مشتركة واحدة .

لكل هذه الخطوات المتشابكة أساس اقتصادى محدد تعتريه تغيرات حاسمة ، فاندماج القبائل وتحوّل النظام القبلى إلى « نارودنوست » قد تمّا على أساس حلول شكل محل شكل آخر من أشكال علاقات الإنتاج . وإن إحلال المجتمع لعلاقات الاستغلال والسيطرة والتبعية التى تميز جميع النظم الاجتماعية الطبقية محل علاقات التعاون والعون المتبادل التى تميز النظام المشاعى البدائى حيث لم تكن قد وجدت الطبقات بعد ، ليتم فى هذه الفترة بالتحديد ، فترة تكوّن الطبقات المتضادة وتكوّن الدولة ، وتنطبق فى الوقت نفسه على فترة تحوّل القبيلة إلى « نارودنوست » .

وليس هناك فاصل محدد بين المجتمع الإقطاعى والنظام المشاعى ، وإن تحوّل النظام المشاعى البدائى إلى نظام إقطاعى ليتم شيئاً فشيئاً خلال فترة طويلة ، وحتى حين تسيطر العلاقات ذات الطابع الإقطاعى فإن بقايا معينة واضحة لتتخلف عن النظام المشاعى البدائى . إنها بقايا عنيدة حتى ليجدها المرء فى ظل المجتمع الرأسمالى .

وليس هناك أيضاً فاصل محدد بين القبيلة و « النارودنوست » : فتحوّل القبيلة إلى « النارودنوست » يتم شيئاً فشيئاً كذلك خلال فترة طويلة ، كما يمكن بقايا التركيب والتنظيم القبلى أن تواصل وجودها وقتاً طويلاً بعد تكوّن « النارودنوست » ؛ ومع ذلك فليست المسألة أكثر من بقايا ، بل يمكن أن نقول : إنها قوالب قديمة ذات محتوى جديد ، وفى هذه الحال فإن القالب لا يلعب دوره الحاسم ، بل إنها العلاقات الاجتماعية التى تميز هذه الفترة التى تلعب دورها وتسود .

وباختصار فإن وحدة الشعوب العنصرية تمرّ فى عدة مراحل من التطور : قبيلة ، و « نارودنوست » ، وأمة .

ويقابل الانتقال من شكل إلى آخر بشكل عام — وبشكل عام فقط — عملية تطور النظم الاقتصادية والاجتماعية : « فالنارودنوست » تتكون أثناء انتقال النظام المشاعى البدائى إلى النظام العبودى أو الإقطاعى ؛

كما تنمو الأمة أثناء انتقال الإقطاعية إلى الرأسمالية .

وبأخذنا بهذا التفسير لكلمة « الأمة » كقاعدة لدراستنا للنمو والتطور العنصرى للشعوب الإفريقية فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نصل فى سهولة إلى هذه النتيجة : إنه لم يكن هناك ولا يمكن أن يكون هناك أمم فى إفريقية عند هذا التاريخ ، ولم يمكن أن توجد أمم ؛ لأنه لم يكن هناك مجتمع رأسمالى .

ففى البلاد الإفريقية التى ظهرت بها فعلا علاقات ذات طابع إقطاعى مختلفة فى درجة التطور حدث فعلا الانتقال من القبيلة إلى « النارودنوست » ، ولا يمكن أن تكون المسألة مسألة « نارودنوست » مثل المصريين والمغاربة والتونسيين والجزائريين واليوروباس والأشانتى والباجاندا وغيرهم ؛ فإن التنظيم القَبَلِى لبعض هذه الشعوب كالمصريين مثلاً — كان قد تفكك تماماً فى هذه الفترة ، كما احتفظت به على العكس بعض الشعوب الأخرى .

* * *

وقد درست بشكل خاص — فى كتابى عن قبائل البانتو فى الجنوب — تطور الأشكال التى أخذتها الوحدة العنصرية للزولو والكوزا والبازوتو والبيشوانا ، وقد قمت بدراسة متصلة للنظام الاقتصادى الاجتماعى عند بانتو الجنوب فى بداية القرن التاسع عشر ، وعرضت نتائج بحثى على المؤتمر الدولى للمستشرقين فى كامبريدج سنة ١٩٥٤ ، وكنت قد صغتها هكذا : «إننا نلاحظ لوحة من النظام المشاعى البدائى فى أعلى مراحل تطوره . مازال التركيب التقليدى موجوداً ، ولكنه قد أدرك مرحلة الثبات الأولى . توجد الملكية الخاصة ، وهناك أغنياء وفقراء ، ولكن المجتمع لم ينقسم بعد طبقات متضادة ، لقد تركز تصريف الأمور فى أيدى العائلات الغنية المالكة دون أن يوجد بعد أى جهاز حكومى قاهر ؛ ويستنتج من هذا أن بانتو الجنوب كانوا فى مفترق الطرق بين مجتمع لا طَبَقى ومجتمع طبقى ، وفى الوقت نفسه بين قبيلة و « نارودنوست » .

وسوف أخص بالاهتمام مسألة تكون « نارودنوست » الزولو الذين يسكنون حالياً الناتال وهو أحد أقاليم « اتحاد جنوب إفريقية » : لقد كانت هناك فى بداية القرن التاسع عشر مائة قبيلة مستقلة تقريباً فى أرض الناتال ولم تكن « نارودنوست » الزولو ، ولم تكن هنــاك لغه زولو موحدة ، بل عدة لغات قبلية مقسمة إلى مجموعتين : التيكيلا ، والنتونجوا . وحوالى سنة ١٨٢٠ بدأ شاكا — وهو رئيس إحدى قبائل الزولو — يخضع لسلطته جميع قبائل الناتال ، ومن العبث أن أقص عليكم قصة شاكا وهو واسع الشهرة(١) .

وكان لحملات شاكا تأثير كبير عند قبائل الناتال ، وبعد أن حاقت بهم الهزيمة تمزقت عدة قبائل منهم ، وتفرقت فى جهات مختلفة . وحدث انتقال الكتل من القبائل عن أماكنها . وقد اختفى بعضها تماماً وفى بساطة من الخريطة العنصرية لإقليم الناتال ، كما زاد عدد بعضها وازدحمت صفوفها بالوافدين الجدد من قبائل أخرى ، وتهدم التركيب القَبَلى القديم إلى حد كبير ، وأدى امتزاج القبائل إلى تكون « النارودنوست » الزولو ، وفى الوقت نفسه حلت محل العصابة القبلية القديمة سلطة مركزية تدعمها القوة المسلحة ، ويرمز هذا إلى بداية تكوّن دولة الزولو .

وكتب بريانت(٢) يقول :

ولم تعد القبائل المستقلة مستقلة ، وطردت العائلات الحاكمة أو أفنيت ، واختلطت القبائل كلها دون تمييز ، ويمكن أن نسمى خليطهم بالأمة الزولو وعلى رأسها شاكا .

وكما أخذت قبيلة الزولو بناصية الخطوات القوية لتوحيد القبائل فى دولة واحدة ، أصبحت لغة الزولو بالتدريج هى وسيلة التخاطب بين كل القبــائل ،

(١) Chaka de Thomas Mofold: Traduction française chez Gallimard.

(٢) A.T. Bryant: Olden Times in Zululand and Natal P. 233.

وأبعدت جميع اللغات القبلية الأخرى وحلت محلها . وقد كان جنود شاكا يتحدثون بلغة الزولو من مجموعة نتونجوا . ولأن الجيش كان يضم شباباً من جميع القبائل انتشرت لغة نتونجوا فى أرض الناتال كلها ، وقد بقيت النساء يتحدثن مدة من الزمن بلغة التيكيلا — بحسب تقرير بريانت — ولكن لم يبق فى العام العشرين من هذا القرن غير عدد قليل من عجائز النساء يتحدثن بالتيكيلا(١)

وبدأت بعد ذلك فترة طويلة من صراع الزولو المستميت ضد الاستعمار الإنجليزى — البويرى زاد فى أثنائها تفكك التركيب القَبَلى ، وتعذر الاندماج بين القبائل .

وكتب الدكتور بروكسى يقول :

« وكانت نتيجة الحرب أن فقد ثلثا الأهالى روابطهم القبلية » .

وفى نهاية القرن التاسع عشر زادت على أرض الناتال نارودنوست الزولو الموحدة بأرضها ولغتها وثقافتها المشتركة.

وسارت الكوزا والبشازوتو والپشوانا خطوة أخرى فى التحوّل من قبيلة إلى نارودنوست ، وعلى كل فقد انتهت هذه الخطوة فى بداية القرن العشرين . وتختلف هذه العملية غالباً بالنسبة لكل شعب ، ولكى نرسم لوحة عامة لتكوّن النارودنوست فى الفترة الإفريقية كلها ، يجب أن ندرس تاريخ كل شعب على حدة .

وعلى كل فإن جميع شعوب إفريقية لم تعترضها هذه العملية قبل نهاية القرن التاسع عشر ، أعنى قبل الاستعمار الأوروبى ، ولم تكن قد تكونت بعـــد نارودنوست فى كثير من المناطق ولا نقول أمة . وقد وجدها الاستعمار فى المرحلة المشاعة البدائية مع تميزات التنظيم القَبَلى .

ولقد أوقف الاستعمار السير الطبيعى لتاريخ شعوب إفريقية ، وأفسد عملية تطورها العنصرى . ومن الصعب الآن أن نقدم بشكل عام مرحلة التطور « الشعوبية » لهذه المجموعات الإفريقية . ولكنّ هناك شيئاً واحداً واضحاً : هو أن العملية مستمرة إذ تتحول القبائل فى بعض المناطق إلى نارودنوست ، كما تتكوّن فى بعض المناطق أمم كانت فى مرحلة النارودنوست .

وسأبدأ الآن بحث مناهجية الكشف عن هذه العملية التى أعانتنى فى عملى وكانت لى هدياً ومناراً .

* * *

إن أول مقومات الأمة هو الأرض المشتركة ؛ ولهذا يجب أن نبدأ البحث بتعيين حدود الأرض التى تسكنها الأمة الناشئة التى يلزم أن ترتكز هى نفسها على التقسيم اللغوى للشعوب ، وهنا نلتمى عقبة عسيرة التخطى ؛ لأنه ليس هناك تقسيم موحد ومعترف به عالـميا للغات الإفريقية وكل عالـم لغوى يقترح تقسيما خاصًّا ، ويخيل إلى أن كل واحد منهم يحاول أن يفوق الآخرين بتعقيد تقسيمه وإثقاله إلى أبعد حد ممكن . وقد قدر جونستون لغات البانتو بمائتين وست وعشرين لغة ، أما فان بولك قد اكتشف خمسمائة وثمانى عشرة لغة فى الكنغو البلجيكى وحده ، ويقدرون لغات السودان بسبعمائة أو ثمانمائة لغة .

إن القائمة اللغوية الإفريقية لتحوى آلافاً من أسماء اللغات ، ولست عالم لغة ولكننى عالم تاريخ واجتماع وعلم إنسان ، ومن العسير علىّ أن أقوم بنقد التقسيمات اللغوية القائمة ، ومع هذا فإنى أستطيع أن أؤكد أن الجدول اللغوى الحقيقى لإفريقية أبسط كثيراً مما حاول إظهاره به علماء اللغة . حقًّا إن المجموعات اللغوية الصغيرة منتشرة بين شعوب إفريقية ، بل تلك حقيقة لا يمكن أى باحث أن ينكرها أو يهملها ، لأنها دليل قاطع على أنه لم تظهر بعد فى أغلب أراضى إفريقية أمم ولا نارودنوست وأن وجود المجموعات اللغوية بعكس وجود المجموعات القبلية فى شعب ما .

ومع ذلك فأنا متيقن أيضاً أن جدول التقسيم اللغوى الذى وضعه المتخصصون فى اللغات جاء نتيجة قيامهم

(١) A.T. Bryant: A Zulu — English Dictionary Moritzburg, 1815. P. 60.

يعمل تقسيم اللغات بطريقة لغوية منهجية مع إهمالهم لوجهة النظر التاريخية . إن ازدهار اللغات ينتج من تطور اللغات القبلية ، ثم من تطور لغات النارودنوست . ثم من اللغات القومية ؛ ففى فترة تاريخية معينة من فترات تطور المجتمع ، تتغير اللغات القبلية إلى لهجات إقليمية للغة خاصة بـ « نارودنوست » ما ، وتصبح فيما بعد لغة أمة . وأعتقد أن علماء اللغة لا يعيرون هذا التحول الهام بالا ، ويواصلون اعتبار اللهجات القبلية والإقليمية لغات مستقلة .

وعلى كل حال فإن مساعدة علماء اللغة ضرورية لتحديد الوحدة الإقليمية للأمة . ويمكن أن نقول بشكل عام : إن كل دراسة جادّة لتكوّن الأمم تتطلب تعاون المتخصصين المختلفين من رجال التاريخ وأصل الأجناس وعلماء اللغة والاقتصاديين .

وتبدو صعوبة أخرى فى تحديد الوحدة الإقليمية للأمة فى أن الحدود التى وضعها الاستعمار لا تنطبق على الحدود « الشعوبية » .

فهناك شعوب كثيرة تتحدث باللغة نفسها أو بلغات متقاربة إلى حد يمكن معه اعتبارها لهجات لغة واحدة قد قسمت جزأين بحدود استعمارية ، كما أن هناك جماعات مختلفة من شعب واحد تعيش داخل حدود مستعمرات مختلفة .

ولهذه الظاهرة أمثلة كثيرة معروفة ، فلن أتحدث عنها . هذا التقسيم الصناعى بحدود استعمارية هو عقبة كبيرة الخطر تعترض طريق الأمم التى تمر بمرحلة التكوّن وخاصة حينما تتبع المستعمرات المتجاورة دولا كبيرة مختلفة تنهج سبلا مختلفة فيما يتعلق بتطوير اللغة والثقافة . وأغرب مثال لذلك هو الصومال الذى قسم صوماليات صغيرة تحت السيادة الإيطالية والفرنسية أو الإنجليزية ، بل لقد ألحق جزء منه بالحبشة .

ومن الواضح أن شعباً كهذا لا يمكن أن يكون أمة طالما استمر وجود هذه الحدود الاستعمارية التى تقسمه عدة أجزاء ، كما يجب ألا نستبعد أن يؤدى بقاء هذه الحدود طويلا إلى تقسيم شعب واحد إلى عدة أمم متآخية : أعنى أن عدة أمم منفصلة يمكن أن تنشأ داخل هذه الأجزاء التى تفصلها تلك الحدود . وفى تاريخ الإنسانية عدة أمثلة « لنارودنوست » تقسمت إلى أمم متعددة نظراً لظروف خاصة ، وإن بلدى أنا لأحد هذه الأمثلة : فمنذ عهد بعيد فيما بين القرن الثامن والثانى عشر تقريباً. كانت هناك « نارودنوست » قديمة روسية واحدة تعيش فى وحدة إقليمية ، ولها لغتها المشتركة وثقافتها المشتركة ، ثم قامت فيما بعد ظروف تاريخية معينة وخاصة بعض العوامل الخارجية ، فقسمتها ثلاثة أجزاء شهدت بعد ميلاد أمم ثلاث : الأمة الروسية ، والأمة الأوكرانية ، والأمة الروسية البيضاء ، ولكل منها الآن دولة قومية .

* * *

وتبرز مشكلة أخرى ذات علاقة بتحديد الوحدة الإقليمية ؛ فإن الدول الكبرى المستعمرة — منتهجة سياسة الحكم غير المباشر — قد عمدت إلى الإبقاء على تقسيم المستعمرات التى سبقت ظهور الملكيات والسلطنات والإمارات . وهذه أقسام ذات طابع إقطاعى لا تمزق الوحدة الإقليمية ؛ لأنها لا تعوق الاتصالات الشعبية ، ولا تحول بين انتقال شعب مملكة أو إمارة إلى غيرها ، ومع هذا فهى تعوق نضج المقومات الأخرى للأمة ، وهى من ثمّ عقبة فى سبيل تكوّنها .

ووحدة اللغة ، ووجود لغة أدبية مشتركة قسمة أخرى مميزة للأمة وقد سبق لى أن تحدثت عن انقسام الشعوب الإفريقية إلى مجموعات لغوية . ويتركز موضوع دراسة هذه المقومة فى اكتشاف الخطوط التى توجه تطور اللغات وعملية تبسيط بنائها وتحول اللغات القبلية إلى لهجات إقليمية .

* * *

وتتكون لغة « النارودنوست » أو اللغة القومية عندما تنتشر إحدى اللغات القبلية المتجاورة لعدد من الأسباب

انتشاراً أوسع من اللغات الأخرى ، وتتحول إلى لغة تخاطب بين القبائل ، فتحل محل الأخريات وتزدهر على حساب اللغات التى تضمر ، وتسجل انتصار هذه اللغة كتابةُ اللغة الأدبية بها .

ولعدد من الظروف الصعبة والمتميزة تاريخيًّا فإن نمو هذه العماية فى بلاد إفريقية بطىء جدًّا وذو طابع فريد .

وتكمن العقبة الرئيسة فى طريق خلق لغة قومية أدبية موحدة فى أن اللغة التى تعتبر رسمية ليست لغة البلاد الأصلية ، بل لغة الدولة الكبيرة المستعمرة ، كالفرنسية أو الإنجليزية أو غيرهما ، وتتخذ هذه اللغة وسيلة التخاطب بين الشعوب المنحدرة من قبائل مختلفة والناطقة بلغات قبلية مختلفة . وتصبح لغة الاجتماعات والصحافة والإذاعة إلخ هى اللغة التى تُنشَر بها الآداب العلمية والقصص التى يكتبها الإفريقيون؛ وهكذا ، فعلى الإفريقى الذى يرغب فى أن يحتل مكاناً فى الحياة يتعدى نطاق قبيلته أن يبدأ بتعلم هذه اللغة الرسمية .

وهنا صعوبات أخرى فى الطريق الموصل إلى تكوّن لغة قومية إحداها جهل غالبية السكان ؛ ومن ثم اختفاء الاحتياج إلى لغة أدبية . وصعوبة أخرى تنبع من التقسيم الإقطاعى الذى سبق أن تحدثت عنه والذى يمتد جذره إلى خصوصية القبيلة وحقوق الأقدمين والتقديس البالغ للأشياء المحلية ، وأحياناً تحقير كل ما يتعلق بالقبائل الأخرى .

كل هذه الأسباب تظهر أن التفتت اللغوى لا معنى له ؛ لأنه يؤخر نموّ اللغة القومية الوحيدة القائمة على إحدى اللغات القبلية .

هل يمكن أن تصبح لغة المستعمر لغـــه قومية للمستعمرات ؟ من الناحية النظرية نرى أنه لا يمكن استبعاد هذا الاحتمال ، ومن الممكن أن تنشأ أمم تنطق بالفرنسية أو الإنجليزية . ولا يتعارض هذا والتفسير الذى ذكرناه لإصطلاح «الأمة» ؛ إذ يلزم أن تتحدث كل أمة بلغة مشتركة أو موحدة ، ولكنه ليس ضروريًّا أن تتحدث كل أمة بلغة مختلفة عن اللغات القومية الأخرى .

وتبقى — تبعاً لذلك — الإمكانية النظرية لنشأة أمم إفريقية تتخذ لغة أوروبية ؛ ومع ذلك فليست المسألة أكثر من مسألة إمكانية قد يقدر لها أن تتحقق .

إن اللغة كما قلت من قبل — هى مرآة لروح شعبٍ ما ، فما يمكن المرء أن يعبر تعبيراً كاملاً عن ذاته الداخلية إلا فى لغته الأصلية ، واللغة أحد أشكال الثقافة الروحية للشعوب ، وليست أكمل ترجمة إلا صورة غير كاملة من الأصل نفسه .

ومن الطبيعى تماماً أن يحتفظ شعب ما فى التحدث بلغته الأصلية على وجه التحديد .

لقد تحدثت حتى الآن عن الصعوبات التى تعترض اللغات الإفريقية أثناء تطورها ، وإلى جانب ذلك نجد ظروفاً أخَر تمهد لنا التطور يمكن أن نبدأها بذكر نمو المدن وتركز عدد كبير من الأشخاص الذين ينحدرون من قبائل متعددة بهذه المدن ؛ فإن حركة الكتل الباحثة عن عمل فى المدن لتؤثر فى تطور اللغات باحتكاك بعضها ببعضها الآخر ، ونموّها بتزايد مفردات كل لغة من مفردات اللغات الأخرى ، ثم بتقايل اختلافات النطق ؛ وفى بطء شديد تقل نسبة الأميين .

وقد لوحظ فى السنوات الأخيرة اهتمام المثقفين الإفريقيين المتزايد بالمشكلات اللغوية ، كما نشأت جمعيات لتنمية اللغات الإفريقية ، بل لقد وضعت مسألة توحيد كتابة اللغات المتقاربة موضع المناقشة فى بعض المناطق . كل هذا يشهد بارتفاع الوعى القومى الذى يعكس العملية الموضوعيـــة لتكوُّن الأمة فى عقل الشعب .

والمقوِّمة الثالثة للأمة هى الوحدة الثقافية : لقد خلقت الشعوب الإفريقية على مر القرون ثقافتها الخاصة : من موسيقى ورقص وغناء ، إلى قصص ونحت ورسم ، وثيابها الخاصة ومساكنها الخاصة وما إلى ذلك . وإن

تراث القرون الماضية الثقافى رائع ضخم ، ثم إنه يمثل أساساً غنياً لتكوّن الثقافات القومية .

وقد هيأ الاستعمار فى أرض إفريقية لقاء بين ثقافتين مختلفتين أشد الاختلاف ، الثقافة الإفريقية ، والثقافة الأوروبية ، وقد كانت الثقافة الأوروبية من بعض الزوايا أكثر تقدماً من الثقافة الإفريقية ، وقد تمثل الإفريقيون بعض أشياء من هذه الثقافة ، ولم يكونوا ليتلذذوا بالعناصر الطيبة التى تحويها .

وقد أوجد ذلك بعض الظروف المتنافرة مع تطور الثقافة الإفريقية التى زحزحت الآن إلى الخلف ، وقد أهملت أو ماتت بعض أشكال الفن الإفريقى ، وخاصة بعض فروع الحرف اليدوية على حين تعدّل بعضها وتلاءم هو وذوق الأوروبيين .

وبين صفوف المثقفين الإفريقيين الآن ثلاثة آراء مختلفة عن الطرق التى سيتبعها فى المستقبل تطور الثقافة الإفريقية :

يود بعضهم أن يأخذ الثقافة الأوروبية أساساً للثقافة القومية الإفريقية وأن يهمل تراث الشعب الثقافى ، وهؤلاء يسمّون بالتقدميين بالرغم عن أننى لا أرى — بكل أمانة فى الحديث — أى شىء تقدمى فى كل هذا .

ويرغب الآخرون تنمية الثقافة الإفريقية التقليدية وعدم تمثل شىء من الثقافة الأوروبية ، وتسمى هذه المجموعة بالتقليديين .

أما المجموعة الثالثة التى يطلق عليها «التقليديون الجدد» فتقترح بناء ثقافة قومية فوق دعامة هى مزيج متلائم من عناصر الثقافتين ، وجعل الثقافة الإفريقية التقليدية أساساً لها .

ويذكرنى هذا بصراع الأفكار المتعلق بمشكلة تطور الثقافة القومية الروسية فى القرن التاسع عشر ؛ فقد اعتبر فريق من المثقفين الثقافة الروسية الأصلية متخلفة وبربرية تقريباً ، بل فضلوا التحدث باللغة الفرنسية على التحدث بالروسية ، وأوحوا باستيراد الثقافة من الغرب ؛ وهكذا فقد سمى ممثلوهم بالغربيين(١) على حين مجّد فريق آخر كل ما كان روسى الأصل أو صقلبياً بشكل عام بما فى ذلك الأشكال المتخلفة فى الثقافة الروسية أيامها ، وأوحوا بإغلاق الباب أمام التأثير الغربى ، وبناء جدار يفصل البلاد عن بقية العالم ، وسميت هذه المجموعة بأحباء الصقلبية(٢) .

ولم يسلك الشعب الروسى أحد هذين الطريقين ؛ فقد أقام ثقافته القومية على دعائم تراثه الثقافى ، وأخذ عن الغرب ما اعتبره جديراً بالأخذ .

تتطور الثقافة القومية للشعوب الإفريقية فى ظروف لا تقارن صعوبتها الكبيرة ، وخاصة فى البلاد التى تطبق سياسة تمثيل لغوى صناعى يلزم هذه الشعوب أن تدافع عن حقها فى أن تتطور ثقافتها تطوراً حراً .

* * *

إن كل دارس للثقافة المشتركة لأمة فى مرحلة التكون تصدمه مشكلات معقدة : فالثقافة نفسها ظاهرة معقدة متعددة الوجوه ؛ فهى تحوى كل ما خلقته يد الإنسان . وعالمه الروحى كذلك ، وتحوى الثقافة القومية خصائص كثيرة إقليمية ، وتوجد هذه الخصائص الإقليمية حتى فى ثقافة الأمم القديمة التى تكونت منذ وقت بعيد ، وتنمو جذورها خلال الأشكال الإقليمية للنشاط الاقتصادى وخلال الوسط الجغرافى ، وهى بهذا حتمية إذن ، ومن الطبيعى أن تحتل مكاناً هاماً فى ثقافة الأمم الناشئة .

والمهام المرتبطة بدراسة تكوّن وحدة الثقافة فى الأمم الإفريقية معقدة تماماً بسبب الظروف الخاصة التى تتكوّن فيها هذه الأمم ، وتتركز مهمة الباحث أساساً فى حاجته إلى أن يعزل من بين الأشكال المختلفة الكثيرة التى أخذتها ثقافة شعب ما ، ذلك الشكل الذى أصبح فعلا مميزاً لمجموع الشعب والذى فقد طابعه المحلى ، وتتنال

(١) Zapadniki

(٢) Slavyonophiles.

مهمته أيضاً تحديد أشكال الثقافة الأوروبية التى غرست تماماً فى وجدان الشعب وتقاليده ، وتلك التى لا تمثل إلا مسلاة عابرة وشكلية لقسم من السكان .

وأتناول هنا سؤالاً شائكاً هو : هل من الممكن أن نتحدث عن ثقافة قومية ، إذا لم يكن هناك أدب متطور — ولو بدرجات مختلفة — باللغة القومية ، وإذا لم يكن هناك فنٌّ تشكيلى وموسيقى ومسرح للمحترفين؟

إننى لا أعتقد إمكانية ذلك ؛ إن عدم وجود هذه الأشكال التعبيرية من الثقافة يعنى أن الثقافة القومية لم تولد بعد ، إن هناك ثقافة شعبية أو تراثاً فولكلورياً ، هناك المواد التى تبنى منها الثقافة القومية ، ولكن الثقافة نفسها لم توجد بعد.

إن الأدب وحده (قصة وشعراً . . . . إلخ) وشعبيته الواسعة على اختلاف فى درجة شمولها للجماهير ، هو الذى يتمم عملية تكوّن اللغة القومية كتعبير أساسى للثقافة القومية . إن إنشاء فنٍّ احترافى ليضيف إلى الثقافة القومية كمال شكلها ، ولونها الخاص ، ومميزاتها القومية الحقيقية . وإذا حاولنا أن نقدر مستوى تطور الشعوب الإفريقية أو مقوماتها فعلينا أن نعترف بأن الثقافة القومية لعدد من الشعوب الإفريقية بقيت عند مرحلة من تطورها بالرغم من ثراء تراثها الثقافى .

* * *

ولننتقل الآن إلى الاعتبارات المنهجية المرتبطة بآخر مقومات للأمة ، وهى الوحدة الاقتصادية . والوحدة الاقتصادية لأمة ما تولد فى الوقت نفسه مع قيام سوق قومية ، فإن لم تكن هناك سوق قومية لم تكن هناك أمة . ومن ثم فدراسة هذه المقومة تتلخص فى دراسة نشوء سوق قومية ، وتلك مشكلة اقتصادية بحتة . والشروط الأساسية المطلوبة لقيام سوق قومية هى التقسيم الجغرافى للعمل ووجود التبادل المتطور القائم على الربح فى ظل طريقة إنتاج رأسمالية .

وإن معرفة ، ولو سطحية ، لاقتصاد البلاد الإفريقية لتظهر وجود هذه الشروط — وإن كانت متفاوتة فى درجات التطور — فالمبادلات الرأسمالية مثلا ضعيفة فى الوسط الإفريقى ، وما تزال فى بدايتها فى بعض المناطق.

ويمكن أن أقول — فى حدود معلوماتى — إن مسألة قيام سوق قومية ما تزال مسألة مجهولة تماماً ، ولست أعرف كتاباً واحداً قد تخصص فى دراسة هذه المسألة . نحن نعرف ما ينتج ، وأين ينتج ، نعرف أنواع المنتجات وكميات ما يصدر منها إلى الأسواق الخارجية ، ونعرف جيداً الروابط الاقتصادية الأجنبية ، ولكننا لا نعرف عمليًّا أى شىء من المبادلات الاقتصادية الداخلية ، ونتمنى أن يأخذ الاقتصاديون فى دراسة العلاقات الاقتصادية الداخلية بإفريقية .

ونستطيع أن نقول — بكل ضآلة معلوماتنا — إن معظم بلاد إفريقية لم تقم بها بعد سوقها القومية ، أو إنها قد بدأت على الأكثر فى أن تكون لها سوق قومية . ومن الضرورى لتحديد درجة التطور للسوق القومية أن نجيب أولا عن هذين السؤالين :

١ — ما الجزء الذى يباع من الإنتاج ، أعنى الجزء الذى يأخذ شكل علاقات إنتاج تولد الربح ؟

٢ — ما القسط الذى يذهب إلى السوق الداخلية ؟ وما القسط الذى يصدر ؟ .

لقد وضع اقتصاديو هيئة الأمم المتحدة إحصاءات تقريبية لبعض البلاد ، وحديثى هنا منصَبٌّ على كتاب « توسع اقتصاديات الأسواق فى إفريقية الاستوائية(١) » . يمكن أن نرى — من خلال هذه الإحصاءات والعمليات الحسابية — أن جزءاً هائلا من الإنتاج قد تحول فعلا فى بعض البلاد إلى أرباح ، ولكنه الجزء الذى صدر بالذات إلى الخارج ، وتلك قسمة مميزة للاقتصاد الاستعمارى .

---

(١) The enlargement of exchange economy in Tropical Africa 1957.

لقد تحولت المستعمرات إلى مراكز لتوريد المواد الأولية إلى العواصم الاستعمارية ، وإن هذا الظرف ليوقف قيام سوق داخلية قومية ، ويعوق من ثم تطور عملية تكوُّن الأمم.

ويصحب تكوُّن الأمم تطور الوعى القومى الذى هو فى المقام الأول وفوق كل شىء ، الوعى بالانتماء إلى شعب واحد ، الوعى بمصالحه القومية . وفى البلاد التى تكونت فيها الأمم فعلا يحس كل فرد بانتمائه إلى هذه الأمة ويفخر بها. وإن عاطفة الفخر القومى لهى إحدى العواطف الإنسانية العميقة ، وإن إهانة توجه إلى كرامة الأمة ليعتبرها الفرد دائماً إهانة شخصية له .

وهكذا فإن دراسة تكوّن الأمم يلزم أن تتناول أيضاً دراسة الوعى القومى ، ويجب أن يسترعى النظر إلى تحول الوعى بالانتماء إلى قبيلة ، إلى الإحساس بالانتماء إلى مجموعة « شعوبية » أكبر ، وإدراك الأفراد وحدهم الانتماء إلى شعبهم وأمتهم ، وقوة عاطفة الكرامة القومية وما إلى ذلك ، ولكن هذه مشكلة علمية خاصة تتطلب مناهج خاصة ليس هذا مكان شرحها .

* * *

تلك هى الاعتبارات المنهجية لدراسة مشكلة تكوّن الأمم فى إفريقية قائمة على أسس من خبرتى الشخصية.

لقد قمت بدراسة خاصة لتكوّن الأمم بين بانتو الجنوب ، ولكننى لم أخض فى دراسات أخر خاصة وذات صلة بشعوب إفريقية أخرى ؛ ولهذا فليس فى نيتى أن أصدر حكماً على درجة التطور الشعوبى فى شعوب أخر ، وأعتقد أن شعوب إفريقية الاستوائية وإفريقية الجنوبية تمر بمرحلة تكوّن الأمم ، ولكنى لا أستطيع أن أحدد درجة تطور كلّ واحد منها فى هذا الطريق .

عن مجلة الوجود الإفريقى Présence africaine

